نصان حول مسقط : بلسان ألماني وعيون رحالية

محمد المعمري *

ظلَّت الدراسات العربية في ميدان الكتاباتِ الألمانية حول الشأن العربي عموماً، حتى وقتٍ قريب، ضيِّقة في مضامينها، شحيحةً في مواردها، لا تُشبع نهم المتابعِ العربي والألماني على سواء، وتغمط حق هذه الكتابات التي أتاحت للثقافات الأخرى قدراً لا بأس به بين جنباتها، بغض النظر عن طبيعة توجهاتها، ومراميها.

بقيت هذه المساحة على ضيقها وشحّها فيما كُتب حول (عُمان) تاريخاً وشعباً، إذ لم تحظ تلك الكتابات الألمانية، بعدُ، بأقلام تجلي بعضاً من معالِمها، أو تقرأ بين سطورها ما كتبه الرحَّالة الألمان الأوائل حول الأرض العُمانية، مقارنة، على سبيل التمثيل، بما تم إنجازه في الكتابات الإنجليزية، ترجمة ودراسة ونشراً.

وقد يخال الباحثون بأنَّ اهتمام الألمان بأرض عُمان، قليلٌ لا شأن له، أوضئيلٌ لا يُضيف شيئاً إلى التاريخ، بيد أنَّ هذا الظن يتلاشى أمام كمٍّ لا بأس به من النصوص الألمانية حول عُمان، بدأت منذ وقت طويل، تعمل في صمت، وبقيت محفوظة في سجلات ألمانيا ودورياتها المتخصصة، ومكتباتها العامرة، يطلع عليها أصحاب اللغة ذاتها أو يمر عليها الباحثون في الشأن العربي العام دون وقوف على مضامينها.

ستحاول هذه المقالة تبديد تلك الظنونِ، مبرزةً إلى الضوء، من جديد، جزءًا يسيراً من عالم النصوص الألمانية حول عُمان، مبينة بعض الملامح العامة في كيفية تناول هذه الدراسات لعُمان، وثقافتها الممتدة في أغوار الزمن، المتجذرة في ذاكرة التاريخ.

من أجل ذلك، سيعرض المقال نموذجين من تلك النصوص فحسب، نُشر الأول منها عام 1835م بينما نشر الثاني عام 1888م، ويحملان كلاهما عنوان (مسقط).

(1)

(وفي مسقط تتمتع جميع الأديان بالقبول، ولا أحد من هؤلاء التّجار

تعرَّض للسَّبِّ أو لاغتصابٍ تعسُّفي للأموال من قبل أتباع الرسول).

(من النص الألماني)

نبدأ بتقريرٍ نُشر في 30 سبتمبر عام 1835م عنوانه (مسقط وسلطانها) (Maskat und sein Sultan)، في مجلة (DAS AUSLAND) ضمن المجموعات المحفوظة في المكتبة الرئيسة التابعة لجامعة توبنغن، ويقع في صفحتين من الحجم الكبير، بخط لاتيني

قديم، وعدد كلماته (1120) كلمة تقريباً.

ويمثل هذا التقرير وصفا آنيّا ومكانيّا معينين، في القرن التاسع عشر(1835م)، وحول مسقط تحديداً، وهو أيضاً مختصر لتاريخ عهد حكم السيد سعيد بن سلطان (1806-1856م)، مستجمعاً عدداً من الوقائع التاريخية على منهج السَّرد الوصفي المقتضب للحالة السياسية والاقتصادية التي عاشتها مسقط خلال تلك الفترة.

يبدأ التقريرُ بوصفٍ عامٍ للحركة التجارية لسوق مسقط، والتجار العاملين فيه، يتلوه وصفٌ للبيوت المحيطة به، وميناء مسقط، وعن الوضع البيئي والصحي لها.

ففي وصف السوق يقول:

> (و(مسقط) عبارة عن سوق مسكونة من قبل التجار الهنود.... إنَّ اللغة الهندية تعتبر لغة التعامل في السوق، حيث إنَّ العربية لا يتحدث بها إلا من قبل العرب الأصليين، والذين يشكلون نسبة ضئيلة جداً من السكان).

كما يقدم التقرير صورةً وصفيةً للسوق، في بنائه المعماري، فيقول:

> (الطرق الضيقة مغطَّاة في شطرها الأكبر بحصائر من سعف النخيل، والتي تغطي ضوء الشمس جيداً، ولكنها لا تمنع بشكلٍ جيد تسرب المطر، لذا بعد رشقة مطر واحدة يغطى السوق كاملاً بالوحل بعمق الركبة، وهنا لا يمكن لا للشمس ولا للهواء أن يجدا منفذاً، فيبقى الوحل حتى يُزال، إما بما تحمله أقدام المشاة معها، أو حتى تتبخّر الرطوبة منه بفعل الحرارة الشديدة).

ويُعطي التقرير، كذلك، وصفاً عاماً للبيوت، بما في ذلك المحلات التجارية في تقديرنا، تصويراً ينم عن شاعريةٍ لا تخلو من النقد الفكاهي، ليقول:

> (البيوت تتكون غالباً من طابقٍ واحدٍ فقط، وأسطحها مستويةٌ مبنيةٌ من التراب، حيث يبدو منظر المدينة كبيوت الأرانب؛ ولكن بيوتٌ بحجمٍ أكبر، وأمام كل بيت مساحةٌ صغيرة واقعة على الطريق، حيث توضع البضائع فيها).

وثمَّة ملحظٌ لا يمكن نكرانه في الكتابات الألمانية هذه، يتمثل في نقل الواقع الدقيق ووصفه، ومحاولة الاستعانة باللغة المقروءة في زمن لم تكن ثمة آلاتٌ تستطيع نقل تفاصيل الحياة اليومية للشعوب، كما حدث لاحقاً، وهو عملٌ بارعٌ عُرف به الرَّحالة العالميون، وبقيت تلك الكلمات مصدر إلهامٍ لكثيرٍ من الرسَّامين حاولوا مضاهاة سحر البيان بريشتهم المرهفة.

وهذه القدرة على التصوير الدقيق تتمثل في محاولة التقرير -أيضا- بيان التنوع المعماري

في مدينة مسقط التاريخية، حيث يقول:

(قصْر السلطان وبيوت عائلته وبيوت كبار التجار على طراز جيّد، ويظهر أنها بُنيت برفاهية. تقع المدينة على حافة السَّاحل، وعلى سفح جبل مرتفع يطوق المدينة بشكلٍ كامل، ويدع ممراً واحداً مفتوحاً نحو البلد إلى الداخل، وهناك توجد مجموعة أكشاكٍ فقيرةٍ حول مستنقعٍ آسنٍ تعود للعرب الأصليين، الذين لم يسمح لهم بالبناء الثابت خشيةً من أن يتخذها الأعداء ترساً لهم عند تقدمهم للمدينة).

وهذا الوصفُ ذاته نجده في بعض الكتابات العمانية بأن (معظم مساكن أهل مسقط تقع خارج نطاق السور الذي يطوّق المدينة، وقد بُنيت هذه المساكن الصغيرة من جذوع النخيل وسعفها. أما المساكن التي بداخل السور فقد كان معظمها من دورٍ واحد وإن كانت بعض منازل الأثرياء تتعدى ذلك وقد كانت المساكن تبنى من الطين أو الحصى، ولبعضٍ منها باحات صغيرة وتطلى سقوف بيوت الأثرياء بالجير الأبيض الذي يزخرف بنقوش هندسية).

ومن المعمار ينتقل التقرير إلى الحديث عن البيئة المسقطية آنذاك، فيقول:

(إنَّ كلَّ شخصٍ يؤمن بالفطرة بأنّ هذه البيئة غير صحية، وهي غير صحيِّه فعلاً، حتى أنَّ وجود الأوروبيين فيها في فصل الصيف يعتبر أمراً مميتاً بشكلٍ قطعي. وقد مات ثلاثة ممثلين عيّنتهم شركة الهند الشرقية فور وصولهم، ويعمل هناك الآن رجلٌ من البانيان اسمه غلاب كقنصل إنجليزي).

ثم يعرج التقرير إلى الحديث عن ميناء مسقط، باقتضاب أيضاً، قائلاً:

(إنَّ ميناء مسقط محميٌ بشكلٍ كاملٍ من الرياح، باستثناء ريح الشمال، والتي تهيج أمواج البحر في بعض الأحيان، فتحول الخليج الى مرسى خطر).

وتلك إشارة إلى الموقع الاستراتيجي لهذا الميناء ولموقع مدينة مسقط بشكل عام، فالجبال تحيط بالمدينة، مشكلة حماية طبيعية، وحصناً مكيناً، فلا غرو أن تُتخذ هذه المنطقة بالذات عاصمة عُمان كلها، ويتخذها السلاطين مقراً لتسيير شؤون الحكم.

كما يسلّط التقريرُ الضوءَ على البحر وصيد الأسماك، وهي المهنة التاريخية لسكان السَّاحل العماني بلا جدال، فيقول:

(على هذا الخليج شمالاً يقع ساحلُ مطرح الجميل، حيث إنَّ البلد مكشوفٌ هناك وصحي. ويُصطاد من الخليج كمية من الأسماك، من المحتمل أنه يزود بها المناطق الداخلية من البلاد، لأن كثيراً من

الإبل المحملة بالأسماك تنطلق يومياً من القوارب إلى الداخل).

ومما لم يفت التقرير بيانه، ما يعتاش منه العمانيون:

(ويظهر بأنّ الناس يعيشون على التمر والسمك بشكل رئيسي، والمواشي أيضاً، ولحم الثور المغذى بذلك لذيذ جداً وكثير الدسم).

كما يشير التقرير أيضاً إلى المنتجات الزراعية في مسقط آنذاك:

(في الجوار من مسقط يزرع البرسيم ويعتبر علفاً للخيول، ويجلب البرسيم يومياً إلى السوق. أغلب الفواكه الاستوائية موجودة هنا، ومن بينها نوع من أنواع العنب الصغير بدون نوى ويسمى الكسمس، وهو لذيذ جداً عندما يستطيع المرء توفيره بشكلٍ نظيفٍ. ولكن لا يوجد هنا شيء أقرف من الكسمس والتمر اليابسين في العادة).

كان التقرير حتى هاهنا وصفاً عاماً لمدينة مسقط وما حولها، بيد أنّ للتقرير محطةً يوقفنا عندها في عرض وصفي للعرب، يقصد العمانيين، في لفتة مفاجئة للقارئ ودون أية مقدمات يربط بين الحياة الطبيعية والعبادات الدينية، حيث يقول:

(إن العرب بكل تأكيد هم الجنس الأقذر من بين جميع الأجناس البشرية. ولم يوجب محمد الغسل اليومي لعدة مرات كعبادة من غير سبب، والذي يعتبر تحقيقها ضروريا مثل الصلاة للفوز في الآخرة، ولكن هذا الأمر أصبح عادة فقط كالتعاليم الأخرى، وبذلك لا يحدث أي تغير في القذارة العامة. ولكن لابد أن يقال أداء للحقيقة أن الطبخ، والذي تمارسه النساء غالبا، تعمه النظافة بشكل كبير).

ويعود التقرير إلى إيقاعه الوَصفي، لتخصيص مساحةٍ ليست بالقليلة للحديث عن السلطان سعيد بن سلطان (1806 - 1856م)، وبعض أحواله وأخلاقه، وعن علاقته بالسوق والتجارة، فيقول:

(تعتمد مسقط على التجارة في الدخل اليومي، ويعود إزدياد أهمية التجارة إلى تحررية فكر السلطان الحالي، وتحت سلطته المعتدلة تتوفر سلامة كل تاجر من التجار وأملاكه، وفي نفس الوقت تتمتع جميع الأديان بالقبول، ولا أحد من هؤلاء التّجار تعرّض للسَّبِّ أو لاغتصابٍ تعسفيٍ للأموال من قبل أتباع الرسول).

وتقدم الرؤية الألمانية ها هنا ملحظاً مهماً في سياق التوجه الديني للمسلمين العُمانيين آنذاك، بما لا يفوت الضيف والزائر ملاحظته من أول وهلة، والذي يقوم على أمرين مهمين: **أولاهما**، أن جميع الأديان تتمتع بالقبول في عمان، وهي روح (التسامح الديني)

التي عرف بها العُمانيون منذ القدم، حيث تلتقي الأديانُ على أسس الاحترام والتفاهم، ومن المعلوم أنَّ أرض عُمان عاش فيها المسلمون أغلبية ساحقة وبين ظهرانيهم أقليات نصرانية ويهودية، كما عاش المجوس بينهم أيضاً. **وثانيهما:** الأمان على الممتلكات، وهي خصيصة ذاتية في الشعوب، يحملها عليه الالتزامُ الأدبي تجاه حقوق الآخرين، بعدم التعدي عليهم، وعدم استحلال أموالهم ونسائهم، والكف عن إيذائهم باليد أو اللسان.

ويشير التقرير أيضاً إلى مكانة عُمان على الخارطة السياسية والاقتصادية في عهد السُّلطان سعيد، وبيان بعض صفات شخصيته:

> (خُلق وصلاح السلطان وأمانه الذي يتمتع به خلال علاقاته مع الحكومة في بومباي وموقع الميناء الإيجابي على بوابة الخليج الفارسي نوع من السيادة على سواحل إفريقيا ومدغشقر والبحر الأحمر والخليج الفارسي والهند بشكل عام).

وفي لفتة أخرى من التقرير، يتحدث الكاتب عن السلطان وعائلته، رابطا بين الملك والديانة، وهو أمر غير مألوف في بعض الأدبيات المسيحية التي تدع أمر السياسة في كفة وأمر الدِّين في الكفة الأخرى، وخاصة في نهاية القرن الثامن عشر فيما سمي بالثورة الفرنسية (1789م) حيث تم تقييد سلطة الكنيسة عن التدخل في شؤون الملكية، وحدث صراعٌ بين الفاتيكان والجمهورية الفرنسية جراء ذلك، حيث قامت فرنسا بغزو روما مرتين، الأولى عام 1798م والثانية عام 1809م ، وبعدها قام نابليون بونابرت بصيغة توفيقية بين الخصمين بأنْ تُترك الكنيسة وشأنها ما دامت مقتصرة على الشؤون الروحية، واستمر هذا التوفيق قرناً من الزمن تقريباً حتى عام 1905م حيث أعلنت الجمهورية الفرنسية مرسوماً يقضي بالفصل بين الدِّين والدولة تماماً.

والمهمّ في هذا السياق هو تأكيد التقرير على (قدسية) السلطان وعائلته، وحفاظهم على الصلوات الخمس، في وقت كان توجُّه أوروبا، عموما، ينزع إلى الرّيبة من الأمور الدينية، جراء الصراع الطويل بين سلوك رجال الدين والطبقات الكادحة من الشعب، على الرغم من تحفظنا الشديد على وصف (القدسية) هاهنا، فلم نجد ذكره في أي من المصادر التاريخية، ولم يعرف عن هذه العائلة والتي بدأ حكمُها لعُمان في عهد أحمد بن سعيد عام 1741م سوى تقدير الشعب لهم، إلا إن كان يعني، أي كاتب التقرير، بذلك الاحترام والتقدير الشديدين.

يقول التقريرُ ما نصه:

> (تعتبر العائلة التي ينحدر منها السلطان مقدسة، وهذا الاعتبار فقط من خلال صرامتها في الحفاظ على كل ما قاله محمَّد من أوامر. تؤدّي العائلة الفروض اليومية الخمسة من الوضوء والصلاة في وقتها تماماً، وهذا يأخذ وقتاً طويلاً، مع ذلك يلتقي السُّلطان مرتين

في اليوم بموظفية في الديوان ويسيِّر شؤون الحكومة).

وفي ذلك إشارة أيضاً إلى اهتمام السلطان بشؤون دولته، والاجتماع بحكومته مرتين في اليوم دليلٌ واضح.

ويتناول التقرير جانباً من تاريخ القوة البحرية العمانية، بالإشارة إلى السفن الحربية والتجارية التي كانت تمخر عباب بحار العالم آنذاك:

> (يستخدم السُّلطان سفنه الحربية الصغيرة للتجارة، والتي تتكون من بحارة من الهند، كربابنة السفن، والتي يظهر أنها لم تستعمل سابقاً لأية نوايا حربية، ومن خلالها يجمع السلطان بضائع من شتى الأنواع من سواحل شرق افريقيا وكلوة وزنجبار ولامو كوريس، ثم يتاجر بها في كالكتا والخليج الفارسي).

كانت تلك أبرز ملامح التقرير الذي نشر حول مسقط عام 1835م، والذي استطاع، على قصره، أن يستوعب مضامين كثيرة للحياة العامة، وللسياسة الداخلية، وللاقتصاد والبيئة، وينقلها إلى المتلقي الألماني الجالس على الجهة الأخرى من العالم.

(2)

(ولن يجد المرءُ في مسقط، مع انتصار الهلال على الصليب، بأن تُحوّل الكنيسة إلى مسجد، كما حدث في القسطنطينية بكنيسة آيا صوفيا).

(من التقرير الألماني)

النموذج الثاني في هذه المقالة، حول ما كتب عن عُمان باللغة الألمانية، تقريرٌ أُعدَّ للمجلة الألمانيةِ العتيقة (Globus) في مجلدها رقم (54) عدد (19) سنة (1888م)، ويقع في (1700) كلمة تقريباً، مع سبع لوحاتٍ فنيةٍ، تعكس، برأي المجلة، أوجه الحياة العامّة في مسقط وبعض القرى المجاورة لها، وكان يرأسُ تحريرها آنذاك الدكتور إميل ديكرت (Emil Deckert 1848م-1916م)، أستاذ الدراسات الجغرافية بجامعة فرانكفورت.

يمتاز هذا التقريرُ عن سابقه بتوجُّهه التاريخي والسّياسي، واعتماده على اللوحات الفنية السبعة، وإمعانه في تناول الأبعاد الحيوية للناس.

وصل كاتبُ التقرير إلى مسقط عبر البحر، في رحلةٍ طويلةٍ لا تخلو من مخاطرها المعتادة في غمرة صراعات القرن التاسع عشر الميلادي على منافذ التجارة والبحر، ويبدو أنه زار في طريقه عدداً من المدن الشرقية الكبيرة، ومن بينها مدينة القسطنطينية في تركيا، فعدَّ (مسقط) واحدةً من أجمل تلك المدن؛ بجبالها المهيبة، وأرضها الممتدة، وسكانها المسالمين، وسياستها المتسامحة.

يقول كاتبُ التقرير وهو على متن سفينته المتجهة إلى مسقط ، وهي تمخر عُباب (خليج

عمان):

(أول مشهد من مسقط، عندما يقترب المرء منها من ناحية البحر، فاتنٌ ساحر، كحال جميع المدن الشرقية الكبيرة. مرتفعات صخرية عالية، والحجارة التي يتخللها ضوءُ الشمس كالمسرح المفتوح ترتفع على سطح الماء الأزرق، فترسم هذه الصورة خلفية فنية رائعة. وهذه هي نهايات سلسلة الجبل الأخضر، أعظم جبال سلطنة عمان، والذي يقع أطلسيا في اتجاه الجنوب الشرقي إلى الشمال الغربي، وفي القرب من شاطئ مزدان بالحجارة الكريمة...).

ويتابع التقرير وصف تلك السلسلة الجبلية، فيقول:

(هذه الصخور لا تقوى على حمل أية نباتات، وبهذا نتذكر أننا نتوسط حدَّ الشمال الشرقي للصحراء العربية الكبيرة. في أشهُر الشتاء تُرشُّ بكمياتٍ قليلة، من المطر، فقط، بينما في أشهر الصيف سحبٌ لا ماء فيها تتجمع فوقها في السماء).

والإشارة إلى قلة الأمطار في هذه المدينة الساحلية يشترك فيها عددٌ من التقارير الألمانية القديمة.

ثم يستطردُ التقريرُ في وصف ما على تلك السلسلة الجبلية، جاعلاً منه نقطة عبور إلى الحديث عن مسقط تاريخاً وسياسة، يقول:

(على تلك الصخور العالية تتربع الحصونُ المختلفة مع الأبراج الضيّقة والمدوّرة، والتي تذكّر بالقرون الأوروبية الوسطى، وهي تمثل أيضاً نهاية القرون الوسطى وإليها الفضل في نهضتها. قام البرتغاليون ببناءِ هذه الحصون المنيعة مع رحلاتهم نحو شرق الهند في عصر البوكيرك، وكانوا يستعملونها من أجل حماية قوتهم البحرية).

يشير التقرير هنا إلى قلعتي (الجلالي) و(الميراني) الشامختين، المتقابلتين على ساحل مسقط، اللتين لا تُذكران في اللسان التاريخي إلا معاً.

وبعد وصف هاتين القلعتين، أو إحداهما، يوجه كاتب التقرير تساؤلاً كبيراً، فيقول:

(إنها تَظهرُ بشكلٍ غير مقدور الاستيلاء عليها، سواءٌ من جانب البحر أو جانب البر، وهي تسيطر بمواقعها المدخل نحو المرسى وكذا الممرات الجبلية، وهنا يتساءل المرءُ متعجباً، كيف أُجبر البرتغاليون على التخلي عنها؟)

وهو تساؤلٌ في محله، إذ كانت القوة البرتغالية ضاربةَ الجذور في مستعمراتها، طويلة

الذراع في إخضاع من تريد، فكيف أجبر البرتغاليون على التخلي عنها؟ رغم بُعد مسقط الاستراتيجي، وموقعها على مشارف البحار العالمية وخطوط الملاحة الدولية، والتي كانت عصب الحياة الاقتصادية في ذلك الوقت؟

ولكنّ الكاتب يُعيد إلى ذاكرته وإيانا تجربةً أخرى مماثلة:

> (لم يكن الوضع ها هنا (فحسب) على أية حال، ففي الهند، أجلي الهولنديون مع قوتهم وموقعهم الحصين ليقوم السكانُ الأصليون باستيطانها. في نهاية حرب الاستقلال الطويلة والتي واجهها الإسبان والبرتغاليون، حتى يظهر أنّ الهجوم كان سهلاً لدرجة أنّ التاريخ لم يحك لنا ما حدث من صعوبات).

بعد ذلك يبدأ كاتب التقرير في وصف الحياة العامة للناس في مسقط وطبيعة بيوتهم ومساكنهم، فيقول:

> (على سفحٍ ضّعيق عند أرجل تلك الجبال وتلك الحصون تتزاحم البيوتُ البيضاء معاً، وفي مقدِّمتها بشكلٍ خاص البيوت الرسمية الكثيرة للمدينة: قصر السُّلطان، والدِّيوان، والبيت القديم لمكتب الجمارك، كذلك بقايا من شواهد حكم البرتغاليين، وأخيراً وليس آخراً، مكتب القنصل الإنجليزي).

ثم يعرج إلى الحديث عن الحياة الاقتصادية قائلاً:

> (الميناء تدبُّ فيه الحياة، وترسوا عليه بعض البواخر الإنجليزية الضخمة قبالة المرسى، وبجانِبها بعض السفن الحربية الصغيرة للسُّلطان، وعلاوة على ذلك ثمة عددٌ كبيرٌ من القوارب والزوارق التابعة للسُّكان الأصليين. حتى يظهر للمرء بأنه يستطيع التعامل مع المراكز التجارية المخصصة على المحيط الهندي وفي الوقت نفسه في الأماكن البحرية المليئة بالسكان. أما كان ينبغي للقادة المتأخرين من العرب أن يأخذوا نصيبهم من الهند بكل اقتدار).

كما يربط التقرير بين ميناء مسقط بموقعٍ آخر له أهميته التاريخية والسياسية والاقتصادية من مناطق عُمان، فيقول:

> (على شواطئ عُمان كثيرٌ من المنافسين، وبعضها، خاصةً صُحار والتي تقع بالقرب من الخليج الفارسي، لعبت دوراً مهماً في الحقبة التي سبقت البرتغاليين. وقد أشار إليها ابنُ بطوطة في القرن الرابع عشر بأنها بلدةٌ صغيرة. في ذلك الوقت، وعندما كانت حياة البحرٍ في بلاد الخليج الفارسي، وخاصة بلاد ما بين النهرين، مزدهرة

ونشطة بحركة السفن، حدث أمرٌ محزن، فقد صعدت مسقط أما باقي (المواقع البحرية) فقد انهارت).

ويتحدث التقريرُ في إشارةٍ سريعةٍ عن زنجبار، محاولاً الربط بين عُمان الأم وتوابعها على السواحل الإفريقية، فيقول:

(إنّ تأسيس سلطنةٍ زنجبار من قبل مسقط، والذي قد يعتبره المرء خدمة استعمارية، ظهر في الحقبة الأخيرة من جراء الهجرة العربية إلى الشّواطئ السواحيلية، مع أنها كانت قبل ذلك).

ويعود التقرير إلى الحديث عن مسقط وهو الآن خارج المقار الرسمية التي أشار إليها، متحدثاً عن جزئها الداخلي وقد ساح فيها وسبر أزقتها، ولاحظ ما يلي:

(في داخل المدينة يتهيأ للزائر عموماً ما لم يكن بالحسبان، مثل القسطنطينية؛ فالشوارع ضيقة، متسخة، وعرة، وأغلب المنازل يظهرُ نصفُها العلوي وقد علاها الدمار).

ووصف هذه البيوتات الصغيرة هو الوصف ذاته الذي وُصفت به مسقط قبل نيف وخمسين عاماً من تاريخ هذا التقرير (1888م)، حتى قال ذاك الكاتبُ حينها (عام1835م): أنَّ البيوت أشبه بجحور الأرانب لمن يراها من بعيد.

ويضيف هذا التقرير قائلا:

(وفي أعلى الحصن الذي بناه البرتغاليون تقع الكاتدرائية الجميلة قبالة كل شيء. ولن يجد المرءُ في المدينة، مع انتصار الهلال على الصليب، بأن تُحوّل الكنيسة إلى مسجد، كما حدث في القسطنطينية بكنيسة آيا صوفيا).

ويقول:

(إنّ المادة الأساسية لبناء بيوت المدينة هي الطوبُ الطيني المجفّف بحرارة الشمس، وهندسة البناء للبيوت الكبيرة حصينة مع فناء كبير بداخلها. لا يوجد ثمة مساجد مميزة وجميلة، ويعود السبب - كما يبدو - إلى قلة الشعور الديني لدى السكان، وهم كوزموبوليتانيون جدا).

ونلحظ هنا، التأكيد على (روح التسامح الديني) التي ازدانت بها مسقط على مر العصور، بما يجعلها ملمحاً عاماً في الكتابات الألمانية حول هذه المدينة، ولا تخطئ عين الزائرين لها منذ أول وهلة، ففي التقرير الأول التأكيد على مبدأي (التسامح) و(الأمان)، وها هنا التأكيد على مبدأ (قبول الآخر والاعتراف به)، وصرف النظر عن أي محاولة لطمس هويته أو تبديد معالم وجوده.

ينتقل التقرير مرة أخرى إلى وصف البيوتات في مسقط:

(قصر الإمام والذي يقع في طرفٍ حصينٍ على البحر ويتميز عن باقي المباني برسوماته وبوابته الجميلة، وبنحوته العربية وبمدخل الأسُود، ويجد المرء الأمر ذاته في قصور حكّام بلاد الشرق.
هذا النوع من الإعداد في القصور الملكية الشرقية قديمٌ جداً، وقد ورثوه قبل العهد الإسلامي من قبل الآشوريين الوثنيين دون تغيير).

ويعود التقرير إلى وصف حركة التجارة في سوق مسقط، وملامح المتعاملين فيه:

(ومن الطبيعي أن يشكل السوق (البازار) مركز حركة الناس في المدينة، وثمة هنالك خليطٌ متعددٌ والذي يشكل السكان، بحيث يمكّن من دراستهم بشكل أفضل.
يمثل الهنود عمدة قوية، وقبل كل شيء البانيان الهنود، حيث ينجذب المرء إليهم، بدماثة أخلاقهم غير العادية، ولكنهم، على أية حال، في التعامل التجاري ماهرون، والذين يعودون عادة بعد عدة سنوات إلى بلادهم الأصلية الهند ليكوّنوا أسراً غنية هنالك. وهم معروفون بأنهم نباتيون متشددون، فلا يأكلون اللحم، بل يعيشون على الأرز، والفواكه، والحلوى.
والمنافسون لهم هم المسلمون، والذين يتسمون بالوجه الطولي والعيون الحادة، والذين لا تتبين بشكلٍ واضحٍ ملامحُهم العربية الأصيلة، كما لا ينتمون أيضاً بشكل بيِّن إلى المتعصبين الإسلاميين.
والعرب غير الأصليين (يعني بهم غير سكان مسقط) والذين أتوا من الواحات الداخلية ذات التضاريس الجبلية الصعبة، لكي يبيعوا التمر والمنتجات الأخرى، وشراء القطن الإنجليزي والمعدات والأسلحة وما سواها).

من خلال هذا النص، يقرب لنا التقرير الحضور البشري في سوق مسقط آنذاك، في وصف دقيق يعيد الناس من حيث أتوا، في أمرٍ امتاز به هذا التقرير عما سواه، كما أنه لم ينس وصف نساء مسقط، فيقول:

(والنساء لا يلبسن أقنعة بشكلٍ متشددٍ كما هو الحال في بقية المدن الإسلامية، ويمكن تفسير هذه الحالة بأنّ المجتمعات التجارية العالمية تتمتع بالتَّسامح بينما ينحسر التعصُّب، ومع ذلك فإن اللباس الإسلامي لا يغيب بأي معنى من المعاني).

ويصف الحضور الإنجليزي قائلا:

(ومن الأوروبيين يمثل الإنجليز فحسب حضوراً قوياً في مسقط، وفي مجمل التعاملات التجارية للمدينة يسمع المرء بشكل لافت اللغة الإنجليزية بجانب اللغة العربية. وهم يركزون على هذه النقطة تعبيرًا عن سلطتهم على الهند وعلى التجارة بشكلٍ عام، وهم يتعاملون معها بشكلٍ واضحٍ كمحميةٍ بريطانية، وهم يدَّعون حمايتها بشكلٍ علني، بالإضافة إلى حماية مصالحهم التجارية العالمية، كما هو معلوم).

ويعود التقرير إلى وصف مسقط وأسوارها وتضاريسها، وما يتعلق بذلك:

(على الأرض حول مسقط ثمة سورٌ منيعٌ يحيط بها، ويوجد به ثلاثة أبواب محروسة من قبل الجنود، ويستطيع المرء من خلالها الخروج إلى مساحةٍ خالية، وهذه المساحة بالتأكيد محدودةٌ وضيقة، وتتعرض الأرجل في كل مكان لمعوقات مفاجئة تحُول دون التنقل بسبب الصخور والحجارة).

وإشارةً إلى النشاط الزراعي، وأهمية الآبار المائية في عُمان يقولُ التقرير:

(الأرض الخصبة تحتل مساحة ضيقة، ومع ذلك فثمة بعض البساتين، والتي تسقى عن طريق الآبار، وقد زرع فيها بشكل مرتب النخيل، والعنب، وأشجار التين، وغير ذلك...هذه الآبار هي مصدر مياه الشرب لدى السكان، وهم يتعاملون معها بنفس الطريقة التوراتية حيث توضع المياه في جحال كبيرة وتنقل بحملها على الرأس إلى حيث البيوت).

وفي محاولة لتحديد مسارات التجارة الداخلية في عُمان، يشير هذا التقرير إلى مايلي:

(المنفذ الوحيد للمدينة، والذي يقع في الشمال منها، يقود إلى مدنٍ كبيرةٍ وصولاً إلى الجبل الأخضر، وهي التي تحرك اقتصاد مسقط، وهي مصدر المنتجات الزراعية. هذا المنفذ الموصل إلى تلك الأماكن وعرٌ وصعبٌ للغاية).

ثم يستعرض التقرير موقع (مطرح) وأهميتها بالنسبة إلى جارتها (مسقط)، فيقول:

(على بُعد أميالٍ قليلة من مسقط وعلى الجهة الغربية منها تقع مطرح، والتي تعتبر ضاحيةً من ضواحيها، والوصول إليها إنما يكون عن طريق الممرات الحجرية الضيقة والتي قليلا ما تسلك، فلذا تكون وسيلة الاتصال بين المدينتين، غالبا، عبر القوارب

الصغيرة التي تبحر ذهاباً وإياباً).

وعند المقارنة بينهما يستخلص التقرير ما يلي:

(تعتبر الأرض والتربة في مطرح أخصب من التي في مسقط، وفي هذه البيئة ثمة بستان ضخم، وها هنا الإقامة الصيفية للسلطان، وعلى الرغم من ذلك تعتبر مطرح أفقر من أختها الكبيرة، إذ لا حظّ لها من التجارة الواسعة لبلاد ما وراء البحر، فميناؤها مفتوح، والريح والأمواج تسجل فيها بدرجات عالية مقارنة بما هو في مسقط).

وحينما صمت التقرير الأول عن تسمية شيءٍ من قلاع مسقط وحصونها، نلحظ ها هنا تسميتها بأسمائها، وبيان معلومات دقيقة حولها، يقول:

(في أسفل القلعة المبنية تقوم قلعة الجلالي الواقعة شرق المدينة بحماية مسقط، وخاصة في فترات الجذر البحري، وإلا فإنها أشبه بجزيرة، كما ينبغي التأكيد على دور قلعة الميراني على الغرب من المدينة. ويعتمد جيش السلطان على 1200 جندي، لحماية هاتين القلعتين، وهم مسلحون بالمدافع القديمة، والتي على الأرجح تعود إلى مخلفات الوجود البرتغالي).

ويعطي التقرير كذلك معلومات دقيقة حول نوع وحجم الصادرات العمانية من سوق مسقط، ومدى تأثرها بمناخ التجارة العالمية، ومع الهند تحديداً، فيقول:

(إذا كانت مسقط معتمدة على التعاملات التجارية فإنها اعتمادها هي ذاتها على كراتشي، ومع ارتفاع المعدلات التجارية والتي اكتسبتها الهند في الآونة الأخيرة فإن ذلك يذهب عن مسقط بشكل متوازٍ.
وتعتبر الصادرات المهمة لمسقط: الملح، التمور، الأسماك، القطن، واللؤلؤ، والخرز، وبلغت صافي الصادرات في هذا الوقت إلى ثلاثين مليون مارك ألماني).

ولا يفوت هذا التقرير كسابقه، الإشارة إلى المناخ المسقطي المعهود:

(بالنسبة إلى مناخ مسقط فإنها ضمن أكثر بلدان العالم حرارة، ولذا فالبيئة الصحية لا يمكن الزعم بها، كما أنّ المواطنين يفرون في أشهر الصيف إلى الجبال، ويتبقى عددٌ قليلٌ منهم في المصحة).

وفي سابقة مثيرة في النصوص الألمانية، يقدم هذا التقريرُ تعداداً سكانياً لمدينة مسقط، وجارتها مطرح، بل يتعدى ذلك ليقدر تعداد سكان عمان بشكل عام:

(يبلغ تعداد السكان في مسقط إلى 40000 شخص، وفي مطرح 25000 شخص، أما التعداد الكلي للسكان في عمان فيبلغ مليون ونصف المليون شخص.
وبشكل منطقي على كل حال فإن الحديث عن إحصاء تعداد السكان بشكل دقيق من قبل سلطة الإمام أمر لم يتم الحديث عنه بعد).

يمثل النصّان الألمانيان حول مسقط في القرن التاسع عشر نموذجين فحسب، في خضم عدد كبير من النصوص التي لابد من دراستها، قبل هذه الفترة وبعدها، والتي باكتمالها، إلى حدٍّ ما، يمكن الخروج منها ببعدٍ آخر في العلاقات الإنسانية، ومحاولة الجانب الألماني فهم طبيعة الشعوب وثقافاتها وبيئاتها، والتعرّف على الحراك الدولي في جوانب السياسة والاقتصاد والمعارف.

ونستخلص من هذين النصَّين أنّ الرَّحالة الألمان دقيقون في وصف ما يرون ويلاحظون، ليعبِّروا عن هذا بلغة واضحة، وإن كانت المقارنة، في بعض الأحيان، لا تخرج عن حيز النظر إلى (الآخر) من خلال (الأنا) الأوروبية، في وقت تعمَّقت فيه الصراعات الدولية على الشأن والشأو.

وتتجلى دقة كلا النصين، أو أحدهما، في تبيان أرقام محددة يصعب في ذلك الوقت الحصول عليها، كبيان أعداد الجنود، وتعداد سكان مسقط ومطرح، ومعرفة حجم قيمة التداولات في السوق العمانية والصادرات والواردات، وهذه الأعداد يمكن أن تشكل، للباحثين المتخصصين، ملامح عامة يمكن الانطلاق من ثناياها لبحث الأطوار التي مرت بها الحضارة العمانية على مر التاريخ. بالإضافة إلى دقة تصوير الطبيعة العامة، وحركة الناس والأسواق، والمشاهد الحيوية، والعمران والبناء، والعلاقة بين الحاكم والمحكوم، وبين التجار والشعب.

إنّ النصَّين، بكل وضوح، يجعلان من مسقط مدينة عظيمة الشأن، مقارنةً بمثيلاتها الشرقية، في موقعها وطبيعتها، وفي تجارتها وتعاملاتها، وفي سلطانها وشعبها، ويؤكدان بصورة ملفتة إلى (التسامح الديني) ملازماً لمكوناتها الثابتة، وإلى وجود قبائل وشعوب مختلفة داخل سور مسقط تعيش في أمنٍ وأمان، بصرامة الواقع وقوة السلطان.

****

*) باحث من عمان.